



ظاهرة التأخر الدراسي في العالم الثالث النامي (١)

بقلم الدكتور : خالد قوطرش
عضو لجنة البحوث والدراسات
في اتحاد الكتاب العرب



توطئة

«هذه الدراسة أجريت، بناء على تكليف من جمعية البحوث والدراسات، في اتحاد الكتاب العرب. وقد قمت بها ميدانياً، خلال شهر كامل أو أكثر. فاتصلت بعدة مدارس ابتدائية واعدادية وثانوية، وبالمعلمين والمدرسين والمديرين والموجهين، وبالآباء والأبناء وببعض المسؤولين في وزارة التربية. فمن هذه الاتصالات ومن تلك الذكريات القديمة والحديثة عن التعليم والتدريس والتربية، تجمعت لدي هذه المعلومات العلمية والعملية، وصغتها في هذا البحث. آمل ان تسهم في تقديم بعض النفع لتخفيف هذه الظاهرة، ظاهرة التأخر الدراسي المتفشية بين أبنائنا الأعزاء».

ظاهرة التأخر الدراسي ظاهرة متفشية في الأقطار العربية وفي البلدان النامية. وتفشية يعوق الانتاج القومي ويؤخر الدخل الوطني. ويسبب مشاكل اجتماعية خطيرة، تضفي نتائجها السيئة على الحياة الثقافية والأقتصادية والسياسية، ولا أكون مبالغاً إذا قلت أن ما يعانيه هذا العالم الثالث من فقر وجهل ومرض وويلات، يرجع إلى التأخر الدراسي في بعض جوانبه ونواحيه. ومن الملاحظ أن التعليم في العالم الثالث، بعد الحرب العالمية الثانية، قد تقدم كما لا نوعاً، ولا ريب في أن هذا التوسع الكمي ساعد على نشر التعليم في تلك البلدان النامية، ولكنه تعليم ضعيف ضحل، شبيه بمكافحة الأمية.

ليس التأخر الدراسي، في الحقيقة، سببا في حد ذاته. إذ ليس في الحياة سبب مستقل لا يتصل بأسباب ومسببات أخرى، فالحياة حلقات مترابطة، كل حلقة منها ثنائية الحركة، تتأثر بما قبلها وتؤثر فيما بعدها.

هكذا كانت طبيعة الحياة، وهكذا كانت وتكون وستكون، وليس في الإمكان أبدع مما كان إلا بمقدار ما يسمح به خالق الإبداع في الانسان. وان هذا الانسان لأعجب ما فيه، قدرته العجيبة وعجزه الأعجب. ومهما يكن الانسان من قوة الأسر وشدة البأس، فما هو في الأصل إلا خلية تافهة تطورت مع الزمان والمكان، وحركتها جدلية التضاد التي قطباها : الخير والشر، وان جدلية التضاد تلازم الحياة ملازمة أزلية وتحولها باستمرار من حال إلى حال. فمن الإسراف أن يظن الانسان أنه اهتدى إلى أسرار الكون. ومن الخير له ألا يعلم من هذه الأسرار إلا بمقدار.

معذرة إن جنح الفكر واشتط الخيال ونأى عن الموضوع وما أنا في الحقيقة عنه بناء. فالانسان وتهذيبه وصلاحه وسعادته، والسير به ومعه نحو حياة أفضل هو هدفنا.

فعودة إلى ما نحن إليه عائدون

في آخر كل عام دراسي، وبالتحديد في أواخر شهر (مايو) نرى ونسمع ونلاحظ أن هم الآباء والأبناء يشتد، بانتظارهم نتائج الفحوص الإنتقالية والامتحانات النهائية، امتحان الشهادة الاعدادية وامتحان الشهادة التوجيهية (الثانوية). الآباء من جهة يترقبون بقلق عظيم المجموع الذي سيناله أبناؤهم ، والأبناء من جهة أخرى، ينتظرون نتائج جهودهم واجتهادهم. ونادرون جداً هم الذين ينالون مجموعا ممتازا أو جيدا يمنحهم حق الانتساب إلى الفرع الجامعي الذي يتطلعون إليه، أو على الأصح، الذي يطمح فيه الآباء لأبنائهم، كفرعي الطب والهندسة. وتبقى الأماني متعلقة، ردحا من الزمن القلق المتزامن مع النتائج المنتظرة.. وتظهر النتائج، ولكنها مع الأسف الشديد، تظهر مخيبة آمال الكثيرين من الآباء والأبناء. كأنما غاية التعلم والتعليم – على حد زعمهم – حمل شهادة جامعية في فرع محترم مرموق، حسب منطق العصر وواقع الحياة العصرية. فالآباء في واد وواقع الحياة في واد آخر، حتى أن بعضهم يفضلون رسوب أبنائهم على نجاحهم بمجموع تافه من العلامات.

أحب، في هذا البحث، وهذه الدراسة أن أحلل هذه الظاهرة المفزعة التي تغشى كل أسرة وتشمل الوطن والأمة بأسرها، قارعاً جرس الانذار، ومنبها الأنظار، أنظار الآباء والمربين والمسؤولين، إلى هذا الخطر المرعب الذي لا يمكن تداركه وتداركه إلا بجهود مشتركة ومتعاونة بين الأسرة والمدرسة والدولة والمجتمع بكافة أعضائه وفئاته.

لاريب في أن التأخر الدراسي يعزى، أول ما يعزى – في رأيي – إلى الفقر. والفقر هو المسؤول الأول ولكنه ليس هو المسؤول الوحيد بل هناك أسباب أخرى كثيرة، تتعلق بـ :

١ – التلميذ.

٢ – المعلم.

٣ – الجو المدرسي العام.

أولاً : التلميــذ :

التلميذ هو المحور الذي تدور حوله العملية التعليمية. فالمدرسة بمجموعها من بناء

ومعلمين ومناهج وأدوات ومقاعد وكتب ووسائل، أنشئت من أجله ولأجله. وقد يكون التلميذ نفسه سبباً من أسباب تأخره في الدراسة.

(أ) صحة التلميذ العقلية :

قد يتأخر التلميذ في دراسته لضعف في قدراته العقلية، وهذا الضعف يأتي من الوراثة أو مرض حل في الجملة العصبية كالتهاب السحايا الدماغية، أو من حادثة تعرض لها في طفولته ، أو غير هذا وذاك. ويكتشف هذا الخلل الدماغي أو العقلي، الطبيب البشري المختص والطبيب النفسي الخبير. وكل من هؤلاء يعطي تقريره الخاص، فإذا ثبت بالبراهين العلمية أن الطفل متأخر عقلياً لزم حينئذ فصله عن فصل التلاميذ الأسوياء، وإرساله إلى معاهد خاصة تدعى «معاهد التنمية الفكرية» يعلم بطرق خاصة على أيدى معلمين مربين متخصصين، أعدوا إعداداً خاصاً. وتوجه هذه المعاهد هؤلاء التلاميذ توجيهاً متدرجاً نحو المهن والأعمال الملائمة لقدراتهم العقلية والبدنية ومن العبث ومضيعة للوقت وضع الطفل المتخلف عقلياً بين التلاميذ الأسوياء، وأن هذا الوضع اساءة له ولرفاقه. ولا سبيل إلى تعليمه وتربيته في مدارس الأسوياء، وأن كل بذل أو جهد في هذا السبيل، يذهب سدى ولا يفيد، فالبيضة الضعيفة لا يمكن أن تعطي ديكاً قوياً، مهما حسنا نوعية التربية والغذاء والبيئة، اذن، فسبب تأخر هذا الصنف من التلاميذ، أصبح اليوم معروفا وكذلك علاجه. وهذا التأخر يسمى تأخراً تحصيلياً أي عدم قدرة التلميذ على التحصيل بوجه عام. وعلاجه يتم، قدر المستطاع، باستخدام التعليم الموازي وصفوف التقوية والمران على بعض المهارات اليدوية وهذا العلاج يعدل ولا يبدل.

(ب) صحته الجسمية :

قد يصاب التلميذ، أثناء العام الدراسي بمرض جسماني خطير أو بسيط، يطول أو يقصر. فيكون ذلك سبباً مباشراً في تأخره، ويزول هذا التأخر بزوال المرض وعودة العافية إليه. وقد يكون التلميذ مصاباً بضعف في الرؤية، لا يرى السبورة وما يكتب عليها من بعيد. وقد يكون مصاباً بضعف السمع فلا يسمع صوت المعلم جيداً لبعد مكانه في الصف. ففي مثل هذه الأحوال، ان لم تعالج الحالة الصحية في أوقاتها المناسبة لدى الأطباء المختصين، غدت أمراضاً مزمنة وكانت سبباً قوياً في تأخر التلميذ في دراسته.. وقد يصاب التلميذ بأمراض وعاهات بدنية أخرى. فعلى الأسرة والمدرسة عرض أولادهم وتلاميذهم، من حين إلى آخر على الأطباء للكشف والمداواة.

وقد لاحظت أثناء جولاتي التفتيشية على المدارس، أن عدداً كبيراً من التلاميذ صفر الوجوه، ذوو أجسام نحيلة هزيلة، وقد حضروا إلى المدرسة صباحاً وهم على الطوى، معدهم فارغة لفقر شديد في الأسرة. فكيف يفهم تلميذ جائع درساً في الحساب أو في الاملاء؟! وقديماً قالت العرب : «لا رأي لجائع».

ومن المفيد أن يعلم الآباء والمعلمون بأن استعدادات أبنائهم وقدرات تلاميذهم الجسمية والعقلية والمزاجية متنوعة ومتفاوتة نوعاً وكماً. لذلك ينبغي عليهم ألا ينتظروا منهم نمواً مطرداً وتطورا متماثلا، فلكل تلميذ فروقه الفردية في الجسم والعقل والمزاج، ولكل تلميذ وضع مادي

وعاطفي خاص به.

ألا ليت الآباء والمعلمين يميزون هذه الفروق الفردية ويدرسونها دراسة متعمقة! فتخف الأعباء ويرتاح الآباء والأبناء، ويضمن لكل تلميذ، مستقبل باسم مناسب لما خلق له.

(جـ) اضطراب التلميذ النفسي والوجداني في أسرته أو في مدرسته!

إن المشاحنات البيتية على مرأى ومسمع من الأولاد، كالمشاحنات اليومية بين الأب والأم وبين الأم وأفراد أسرة الأب (الحماة، الكنة، بنت الحماة، السلفة أو السلايف... الخ) .

هذه الأمور التافهة بالنسبة للكبار هي خطيرة عند الصغار وتؤثر تأثيراً بالغاً فيهم. فتؤخر التلميذ في الدراسة لاضطرابه النفسي والوجداني، وقد تجعل التلميذ الذكي المجتهد تلميذاً متأخراً في دروسه. وقد شاهدنا أثناء جولاتنا المسلكية على المدارس الابتدائية بعض الحالات الغريبة.

«لاحظنا في إحدى المدارس الابتدائية أن تلميذاً عمره ست سنوات ونصف السنة، في الصف الأول، وفي حصة الرسم الحر، قد رسم مطبخ بيته. رسم امرأتين ضخمتين جالستين حول مائدة واطئة، تلتهمان الطعام، وعلى مقربة منهما وقفت امرأة نحيلة تنظر إليهما بحزن ورقة وألم. فسألت التلميذ واسمه حسن :

– ماذا ترسم ياحسن؟ – أرسم مطبخنا – ومن هاتان الامرأتان ؟ – عماتي – ومن هذه المرأة الواقفة وحدها بباب المطبخ؟ – هذه أمي – ولماذا لا تأكل أمك مع عماتك؟ عماتي لا يحببن أمي.

علمنا من رسم الطفل ومن أجوبته بأنه يعاني من مشكلة عائلية عاطفية.. ولما سألنا معلم الصف عن هذا التلميذ أجابنا بأنه كان في مطلع العام الدراسي من الأوائل.. تلميذ مجتهد وذكي ونشيط. ولكنه منذ مدة أخذ يتأخر وتسوء صحته النفسية والبدنية أيضاً. ويبدو عليه عطل عقلي وشرود عاطفي حزين.

وعندما استدعى مدير المدرسة والد التلميذ وهو صاحب محل تجاري متوسط الحال، علم المدير بأن في البيت مشكلة عائلية قائمة بين الزوجة أم حسن وبين عمتي حسن العانسين والقاطنتين، حسب الأعراف والتقاليد في دار شقيقهما، وأن الطفل حسن هو الضحية في هذه المشكلة العائلية. يرى ويسمع ويحس بالاضطهاد النازل في أمه من عمتيه، فاضطرب كيانه العقلي والنفسي كله، فتأخر في دروسه بعد ان كان من المتفوقين.

وعندما شرح الأب، بناء على نصائح مدير المدرسة وارشاداته، لشقيقتيه وضع ابنه حسن في المدرسة وتأخره في المدرسة، وأن هذا الوضع المضطرب قد يؤثر في صحته وقد يمرض وقد يتطور المرض بشكل خطير لا يبرأ منه، عندما شرح الأب لعمتي الولد كل ذلك، عدلتا من موقفهما إزاء الزوجة (الكنة). فالعمة وإن كانت تكره الأم ولكنها تحب الولد. فتحسنت العلاقة في الأسرة. وخيم الهدوء من جديد. وعاد التلميذ حسن إلى نشاطه الجسمي والعقلي وفرحه العاطفي، إلى سابق عهده متفوقا في دراسته».

وقد يضطرب جو الأسرة لأسباب أخرى منها: الفقر والطلاق ووفاة أحد الوالدين، وسفر الأب وغيابه المستمر وسهره الدائم خارج البيت وقلة الراتب وغلاء المعيشة، أو تعطله عن العمل أو تسريحه من الوظيفة... الخ، كل هذه الأمور الاجتماعية قد تؤخر التلميذ في دروسه، على الرغم من كونه تلميذاً سوياً - علماً بأن الاثارة والاستجابة عند التلميذ، في مثل هذه المواقف، مختلفة جدا لاختلاف فروقهم الفردية.

(د) قد يصاب التلميذ بالتأخر الدراسي لأسباب أخرى، لا هي عقلية ولا نفسية ولابدنية. وأهم هذه الأسباب :

- تنقّل التلميذ المستمر من مدرسة لأخرى بسبب تنقل الأسرة من حي إلى حي أو من مدينة إلى مدينة.
- بعد المدرسة عن بيت التلميذ فيصل إلى مدرسته متأخراً.
- وقوف الأولاد ساعات وساعات أمام المؤسسات التموينية في بعض البلدان النامية التي تعاني من الضائقة الاقتصادية وفقدان المواد الغذائية أو قلتها. فيمنع هذا الوقوف الطويل التلاميذ من الوصول إلى مدارسهم في الأوقات المحددة.
- تعاقب المعلمين أو المدرسين لمادة أو عدة مواد خلال العام الدراسي الواحد.
- تكليف المعلمين أو المدرسين الوكلاء بتدريس مادة أو عدة مواد أثناء غياب المدرس الأساسي المريض مثلاً، أو المدرسة الحامل المأذونة والتي وضعت أو على وشك الوضع. ويكون عادة هؤلاء المدرسون الوكلاء من طلاب الجامعة الذين لم يتخرجوا بعد وليس عندهم أدنى خبرة في التدريس فيضيع معهم الطلاب متوسطو الذكاء ويضحون متأخرين ومقصرين.

وهكذا تموت العبقريات الصغيرة الفقيرة وتدفن تحت الثرى قبل أن تستكمل تفتحها بسبب الاملاق أو المرض، وهي عادة، أقل حظاً وأكثر عدداً من العبقريات المحظوظة التي تفتحت وأثبتت وجودها عبر التاريخ الانساني.

وقد ورد على قلم أحمد فارس الشدياق في كتاب شفيق جبري عن الشدياق: ما يشبه هذا المعنى حيث قال قبل أكثر من مائة عام :

«لقد من الله تعالى على كثير من أولاد عصرنا بملكات براعة وحذق، غير أنه لفقد أسباب العلم وعدم ذرائع التأديب والتخريج طفئت جذوتها فيهم على صغر».

تلك حال متفاوتة ومتباينة بين أبناء المجتمعات الانسانية التي لاتزال ترزح تحت وطأة الفقر المدقع من جهة، والغنى الفاحش من جهة أخرى.

ومشكلة المعلمين الوكلاء مشكلة مزمنة، تسهم في التأخر الدراسي، ولكن لا يمكن الإستغناء عن المعلم الوكيل، على الأقل في الأحوال الحاضرة، والحاجة إليه في ازدياد. وإذا ما علمنا بأن نسبة المعلمين الوكلاء في البلدان النامية لا تقل عن ٢٥٪ ظهر لنا خطورة هذه المشكلة.. ويقدر عدد المعلمين الوكلاء في المدارس السورية الابتدائية بما يزيد عن ٢٦٥٠٠ معلماً وكيلاً. فإذا قدرنا بأن كل معلم وكيل يشغل صفاً عدد تلاميذه أربعون تلميذاً كان

هناك ٢٦٥٠٠ x ٤٠ = ١٠٦٠٠٠٠ر١ تلميذ سورياً يتعلمون تعليماً مشوهاً على أيدى هؤلاء المشوهين علماً وتعليماً.

وقد تستعيض بعض الأسر الغنية عن هذا التأخر الدراسي، بالدروس الخصوصية لأبنائها على أيدى مدرسين قديرين، وقد تعطي هذه الدروس الخاصة نتائج جيدة وتخفف من وطأة التأخر الدراسي، ولكن الأسر ليست كلها ميسورة الحال. فتبقى مشكلة التأخر الدراسي عندها مستفحلة بدون حل.. وتبقى ظاهرة التأخر الدراسي في أبنائها سيفاً مسلطاً على رقاب الآباء المعوزين والأبناء المضطربين.

ثانياً : المعلم أو المدرس :

المعلم هو حجر الزاوية في العملية التعليمية. وفي رأينا أن التأخر الدراسي بشكل عام، سواء في المرحلة الابتدائية أو المرحلة الاعدادية أو الثانوية، تقع تبعته في الدرجة الأولى على معلم الفصل أو على مدرس المادة، إذا كان عدد طلاب الصف معقولا ومقبولا، وليس هناك خلل آخر في النظام المدرسي أو في حياة التلميذ العقلية والعائلية. وكم رأينا وشاهدنا أطفالاً وتلاميذ طبيعيين وعاديين في مداركهم ولكنهم مقصرون في مادة أو عدة مواد دراسية. وسبب تقصيرهم وتأخرهم كرههم لمدرس المادة أو جهله في المادة أو عجزه في تعليم المادة، أو انشغال المدرس بأمورغير التدريس لزيادة كسبه، فراتبه أصبح لا يكفيه بسبب غلاء المعيشة. فيضطر أن يعمل بعد الدوام، في عمل آخر، وقد لايكون لائقا بمكانته العلمية والأجتماعية، وهذا العمل الآخر ينجز على حساب مصلحة التلاميذ والطلاب.. لأن المطلوب من المدرس، بعد انتهائه من عمله في المدرسة، أن يحضر دروس الغد أو يصحح الوظائف البيتية أو يهيء وسائل الايضاح ويبحث في كل أمر يسهل عليه مهمته التعليمية والتربوية حتى يأتي عمله منجزا كامل الانجاز..

فإذن يجب أن يعطى المعلم ما يكفيه تماما وبسخاء وأن يحاسب بعد ذلك على عمله التعليمي والتربوي والمسلكي حساباً عسيراً.

وينبغي أن يحسن، في البداية، اختيار الطلاب والطالبات لدور المعلمين والمعلمات ولمدارس اعداد المدرسين.. ففي هذه المعاهد يستكمل هؤلاء الطلاب اعدادهم المسلكي ويصقلون استعدادهم لرسالة التربية والتعليم. فالمعلم استعداد أولاً وإعداد ثانياً.. والمعلمون الذين يجمعون بين الاستعداد والاعداد نادرون جداً. المعلم موظف، وهذا صحيح لأنه يقبض راتبه من خزانة الدولة في آخر كل شهر كسائر الموظفين، ولكنه، في الوقت نفسه، ذو رسالة إجتماعية.. ورسالته تمس مباشرة تنمية البلاد. فهو إذن، مسؤول عن مستقبل الأمة بأسرها.

يحدد البروفسور روجه كوزينه شيخ علماء التربية في فرنسا في النصف الأول من القرن العشرين، يحدد صفات المربي الناجح بثلاث خصال :

١ - شخصية ذكية أليفة ومحببة ومبدعة.

٢ - معرفة عامة واسعة وعميقة ومتطورة ولاسيما في علوم التربية والنفس.. وسعي مستمر في الاستزادة من المعرفة وشعور دائم بأن المعلم تلميذ دائم.

٣ - خبرة تزداد وتنمو وتتميز في الاستمرار على العمل.

هذه الخصال الثلاث إن وجدت في معلم، وقلما توجد، كان النجاح الأكيد حليفه وحليف طلابه.

في الفصل بل في كل فصل، يوجد تلاميذ أغلبيتهم من الأسوياء العاديين. وقد يوجد فيه تلميذ أو تلميذان موهوبان، ويوجد أيضا مقصرون متأخرون، وتلاميذ خجلون. وما أكثر التلاميذ الأذكياء الخجلين!

فإذا لم يعرف المعلم كيف يداوي خجلهم ضاعوا وضيعوا مستقبلهم. يذكرني هذا القول بقول للامام الغزالي المولود عام (٥٠٥هـ/١١١١م) حيث يقول : «إن الطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه وتعليمه بحيائه وتمييزه».

يقول يوجين يونسكو الكاتب المسرحي العالمي في مذكراته :

«بدأت أكتب وأنا في السابعة من عمري - كنت في ذلك الوقت طفلا سعيدا بلا مسئوليات. فوجدت كتابة الموضوعات المدرسية أمراً سهلاً ومسلياً. ولكنني كنت ولداً خجلاً بطبعي، وأتألم بداخلي من هذا الخجل الذي كان يغمر كياني ويقيدني. وحينما أصبحت في العاشرة من عمري طلب المعلم من تلاميذ الفصل، وكانت أسرتي تقطن باريس. أن نكتب موضوعا نصف فيه رحلة ونصور شعورنا حينماً يمر المترو فوق رؤوسنا، ولم أعرف «الديالوك» أي الحوار ولا المسرح لأنني لم أحضر مسرحية، ولكنني وضعت الموضوع في قالب مسرحي، إذ أجريت حوارا بيني وبين أمي.. وحينما قدمت الموضوع ظننت بأن المعلم سيسخر من بلادتي وسخفي، إلا أنني فوجئت به يقرأ موضوعي للطلاب ويقول :

- أنه موضوع رائع. أنه تصوير حي من البداية حتى النهاية.

شعرت ساعتها كأنني نلت وساماً، وشعرت أيضاً بأنني أصبحت كاتباً مسرحياً كبيراً».

وكتب رجل مشهور آخر في مذكراته :

«كنت في الصف الثالث الابتدائي مصابا بالدونية. أخشى كل عمل مشترك. أميل إلى الانزواء والانطواء على نفسي، محاولاً جهد طاقتي أن أخفي شعوري بالنقص عن رفاقي.

وأشد ما كنت أكره حصة الرياضة البدنية. وفوجئت يوما بمعلمي يضعني تحت الأمر الواقع في درس الرياضة البدنية، حيث أخرجني ورفيقين لي ووضع ثلاثتنا في الباحة أمام التلاميذ وقال لنا :

- الآن ستركضون أنتم الثلاثة إلى آخر الملعب، إلى ذلك الكرسي الذي تشاهدونه هناك والذي عليه الوشاح الأبيض. فمن يجلب الوشاح يكن الفائز . قال ذلك ورفع الصفارة إلى فمه :

- استعدوا!

وما أن صفر المعلم حتى انطلقنا نحو الكرسي. وكم كان دهشي عظيماً حينما وجدت أنني أنا الذي يقدم الوشاح للمعلم. وازداد دهشي وعجبي حينما سمعت الملعب يضج بالتصفيق والهتاف للفائز، لي، أنا.

ومنذ ذلك الحين شعرت بشيء جديد ينساب في كياني وأخذت أسجل الانتصار تلو الانتصار حتى غدوت من أفراد الطليعة في كل شيء في الرياضة في اللغة، في الحساب، في التمثيل في الرسم، والأشغال... الخ.

أكملت تحصيلي العالي وصرت محامياً. وقدر لي بعد سنوات أن أرشح لعضوية المجلس النيابي فأنتخبت عن دائرتي الإنتخابية. ثم نجحت كنائب ثم وزيراً مرموقاً.

وصدف أن صادفت بعد سنوات معلمي الابتدائي وقد قوصت الأيام ظهره وبيضت شعره.. فأسرعت نحوه أحييه بحرارة وأدب معترفاً بفضله. وذكرته أثناء الحديث بالحادثة التي غيرت مجرى حياتي، حادثة دروس الرياضة البدنية التي قشعت عن نفسي غشاوة الخجل وحررتني من وهم الدونية. فقال لي معلمي الذي لن أنسى مهارته في التربية والتعليم :

– ولكنني كنت متفقاً مع رفيقيك أن يقصرا في عدوهما حتى يفسحا لك مجال الفوز.

ها كم أيها السادة! معلماً وأي معلم!

التربية والتعليم موقف، يقفه الآباء والمعلمون إزاء أبنائهم وتلاميذهم. فإذا كانت مواقفهم سليمة، جاءت التربية وجاء التعليم سليمين بعيدين كل البعد عن التقصير والتأخر والذلل، والاضطراب...

وإن من مواقف الكبار ما يجدد مستقبل الصغار.

ثالثاً : الجو المدرسي العام :

للجو المدرسي العام أثر كبير في تقدم الدراسة أو تأخرها. ويدخل في هذا الجو أمور كثيرة أهمها :

– جمال البناء المدرسي وموقعه وموافقته لقواعد الصحة. وهدوؤه ونقاوة هوائه غير الملوث، والشمس والنور والمناظر الطبيعية الجميلة. والملاعب الفسيحة... الخ.
– النشاط المدرسي: تمثيل، موسيقى، رياضة، مسابح شتوية وصيفية. قاعات للمحاضرات، مكتبات، مختبرات، حدائق للتجارب الزراعية. ومعامل تطبيقية على بعض الحرف والأعمال الضرورية لانسان العصر.
– المناهج وملاءمتها للبيئة وأعمار التلاميذ. علميا وعمليا.
– الكتب المدرسية مشوقة أو منفرة.
– وسائل الايضاح سهلة وبسيطة وجيدة، أو كثيرة ومعقدة..
– قاعة خاصة لعرض الأفلام السينمائية العلمية والاجتماعية.
– مجلس الآباء ومدى تعاون الأسرة والمدرسة..
– التوجيه المدرسي ومدى نشاطه وفعاليته وحذقه ولباقته.
– إدارة المدرسة ومدى تفاهمها مع الهيئة التعليمية. ومدى تعاون المدير والمدرسين لحل مشاكل التلاميذ التعليمية والتربوية..

- الخبير التربوي النفسي الذي يحتك باستمرار بالتلاميذ المتأخرين والمقصرين يستمع إلى شكواهم وهمومهم ومشكلاتهم ويوجههم ويسدي إليهم النصح والإرشاد.
- الطريقة أو الطرائق التي يتبعها المدرسون في تدريسهم. والطريقة هي أصول تدريس المادة، ونقلها إلى التلاميذ بأيسر السبل وأقصرها. فالطريقة الجيدة تعين التلاميذ على الفهم والتعلم. والطريقة السيئة ترهقهم وتؤخرهم في الدراسة..
- زيادة مطردة في عدد التلاميذ ونقصان في عدد المعلمين سواء أصلاء كانوا أم وكلاء. وقد نجد في مدرسة ابتدائية أو ثانوية صفاً أو صفين وأحياناً ثلاثة صفوف ليس فيها معلمون، فيضطر المدير أن يشغل صفاً، أو يعيد التلاميذ إلى بيوتهم حتى يتخلص من ضوضائهم. ويخبر المدير المسؤولين بواقع الحال ولكن تبقى المسألة بدون حل. إذ ليس في بعض البلدان الفقيرة ذات الاقتصاد المتعثر، مخصصات لتعيين معلمين جدد، وإذا وجد المال لم يوجد معلمون، لأن الشاب المتعلم اليوم عزوف عن مهنة التدريس، ومتطلع إلى مهن وأعمال ووظائف أكثر ربحاً وأوفر مالاً.
- قلة الرواتب وعجزها الفاضح عن تأمين المعيشة للموظف وأفراد أسرته. وهذه الشكوى التي يرددها الأب الموظف يومياً لقلة راتبه وضيق يده توحي إلى الأولاد، بشكل لا شعوري، أن العمل في المهن الحرة كالنجارة والحدادة والتبليط والطينة والمتمديدات الصحية والكهربائية والشوفاج وما إلى ذلك، أو العمل في مطعم أو سائق سيارة أو معاون باص، أو فتح بقالة أو مكتب دلال، هذه الأعمال التي لا تحتاج إلى علم وشهادات، وهي أربح وأحسن، وتؤمن الحياة بشكل أسهل وأسرع. هذه الأمور الحياتية تقنع الكثيرين من التلاميذ بأن يهملوا الدراسة ويتجهوا إلى الأعمال الحرة في إحدى المهن أو الصناعات.

إن العلم للعلم فقد قدسيته .. وأصبح وسيلة لا غاية

تلك صورة المجتمعات الاستهلاكية الحديثة المتسارعة في التقلب والتغيير في مجال المعاملة والسلوك، ونظرتها المتبدلة إلى الأشياء مع تبدل المعيشة. وأن منطقتنا، شئنا أم أبينا، لا بد لها أن تتأثر بهذا الوضع الاقتصادي كسائر بلدان العالم المتقدم أو النامي. فإذا بدا هذا التبدل في المعاملة والسلوك والأنفس، لأكثرنا أو أقلنا، غريبا مؤلما، فانه أمر طبيعي ومنطقي بالنسبة لحركة الحياة الاقتصادية والاجتماعية المتطورة. ومن غير المستطاع عزل المجتمعات الانسانية عن حركة الاقتصاد وتطويره. فالمجتمع الإنساني أنى كانت جغرافيته وتاريخه وهويته، وبما فيه من اقتصاد متطور أو متأخر واجتماع وسياسة وامامة وأخلاق وسلوك وعقيدة ومعاملات وقوانين ووسائل وغايات، هو - أي المجتمع الإنساني - كل لا يتجزأ، ذو حلقات مترابطة متداخلة، تتأثر كل حلقة بما قبلها وتؤثر بما بعدها، كما سبق أن نوهت به في مطلع البحث.

- ومن أسباب التأخر الدراسي عدم تطبيق قانون التعليم الالزامي تطبيقاً واسعاً وقانونياً في المدن والأرياف. فهناك ألوف من. الاطفال الذين بلغوا السابعة ولم يسجلوا في أية مدرسة.. فعلى السلطة أن تعاقب الآباء لعدم ارسال الأبناء إلى المدارس وتقاعسهم هذا ليس فقط

بسبب الفقر، بل بسبب الاهمال والجهل..

- غياب دفتر تحضير الدرس غيابا كليا في مراحل التعليم كلها. والتحضير أمر ضروري جدا في نجاح التدريس أو فشله. وبدونه يضطرب التدريس ولا يستقيم ولو كان المدرس من العلماء المعروفين في المادة التي يدرسها. فدور التحضير كدور المنظم في التيار الكهربائي. اذا تبحر المدرس في تدريسه وارتفع عن مستوى التلاميذ أو انخفض، أعاده التحضير إلى المستوى المطلوب في المنهج، وإلى قدرة الطلاب على الفهم والاستيعاب.
- المذاكرات الأسبوعية والشهرية والوظائف البيتية والامتحانات النصفية وآخر السنة الدراسية. كل هذه الوسائل جيدة وهامة في العملية التعليمية ولها الأثر الفعال في التقدم الدراسي أو تأخره. ومن الملاحظ أن المعلمين لا يهتمون الاهتام الكافي بتصحيح الوظائف البيتية ويمرون بها مرورا خاطفا ويستغل التلاميذ عدم اكتراث معلمهم بتصحيح الوظائف فيهملونها. حتى أن بعضهم يقدم وظيفة كان قد قدمها سابقاً أو أي شيء مكتوب.

ومن المعلوم أن الامتحانات مؤشر غير دقيق ولا يفصح دائما عن قدرات التلاميذ ومعلوماتهم ومهاراتهم. وبعضهم يصاب بعقدة الخوف من الامتحان. هؤلاء مجتهدون ولكنهم ينسون، ما درسوا، في قاعة الفحص، خوفا وهلعا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ضعف المراقبة أو فقدانها أحيانا في قاعات الامتحانات. حتى أن هناك تساهلا فاضحا في المراقبة بل يسمح أحيانا بالنقل على مرأى ومسمع المراقبين.

- يتعمد بعض المدرسين، لاسيما مدرسو مادة الرياضيات والفيزياء، تعقيد المادة أكثر مما هي معقدة، حتى لا يفهم التلاميذ شرحهم. فيقتنع التلاميذ بأن مادة الرياضيات صعبة ولابد لهم من أن يدرسوها خارج صفوف المدرسة، في ساعات خاصة. فيوحي المدرس إلى تلاميذه بضرورة أخذ ساعات خاصة مأجورة. ولتكن عند المدرس نفسه. فيضمن المدرس أجرا جديدا، على راتبه الرسمي، يستعين به على تأمين معيشته. ان هذا التصرف الملتوي، إن دل على شيء فإنما يدل على تردي الوجدان المسلكي عند المدرسين. والتعليم، في الأصل، قائم على الوجدان والضمير. والوجدان المسلكي وحده هو الرقيب الدائم والحقيقي على المدرس. وان غياب الوجدان المسلكي، في المدرس، غياب تام للتعليم. ويؤدي إلى فقدان الثقة بين التلاميذ ومدرسهم. وإذا فقدت الثقة بين المعلم والتلاميذ، بطل التعليم وفسدت التربية واضطرب المستقبل..
- أجهزة التليفزيون والفيديو المنتشرة في البيوت، فهي تصرف التلاميذ عن مراجعة دروسهم وكتابة وظائفهم وتلهيهم عن واجباتهم المدرسية، وتبعدهم عن الدراسة الجادة والمتعمقة. فهم يجلسون ثلاث ساعات في اليوم، على الأقل، أمام هذه الأجهزة الخرساء الناطقة، تقدم لهم صوراً وحوادث وأحاديث، أكثرها غير تربوية. وقد تؤدي بهم نحو الانحراف السلوكي. ومعظم برامج الأطفال التليفزيونية غير سليمة، ولا يؤخذ رأي المربين، قبل عرضها، فعلى المدرسة أن تنتبه إلى هذه الوسائل الحديثة المغرية جدا للأطفال والتلاميذ والطلاب، وأن تتدخل في تنظيمها وتوجيهها حتى تنفع ولا تضر. والتليفزيون يصرف الجيل الحاضر عن المطالعة الجادة التي كان يتمتع بها جيل ما قبل التليفزيون.

- الدوام النصفي المطبق في بعض البلدان النامية لقلة في أبنية المدارس، وكثرة في عدد التلاميذ. وان هذا الدوام يقلل ساعات التعليم ويختصر المناهج ويجعل العملية التعليمية والتربوية عملية سلق المعلومات. وسلق التعليم، سلق المجتمع بأسره.

- الترفيع الآلي الذي كان متبعا في المرحلة الابتدائية ولا يزال، في بعض البلدان العربية كمصر وسورية. وهذا الترفيع الآلي أساء أساءة بالغة إلى مستوى التعليم وترك آثاراً سلبية في عملية التعليم ونشر التأخير الدراسي في مراحل التعليم كلها. فوضع أساس هرم الثقافة على أوض هشة ضحلة، فانهار الهرم قبل أن يرتفع، وتبدد الجهد المبدد قبل أن ينتصب ويسمو، وينفع وينتفع..

- غياب دور الحضانة أو كما يسمونها رياض الأطفال. وهذه الدور هي الأساس في العملية التربوية والتعليمية. وهي التي تضع حجر الزاوية في دراسة التلميذ المستقبلية. وغيابها في المجتمع سبب هام جدا في التأخر الدراسي. وهي ضرورية جدا وليست كمالية، وليست (كاتو) كما يحلو لبعض المسؤولين أن ينعتها وأن العدد القليل الموجود حالياً في القطر لا يكفي. ويقول علم النفس : إن الانطباعات الأولى التي تنطبع في نفس الطفل، وفي خلال طفولته الأولي، تبقى مع الانسان حتى الممات..

وفي رأينا أن حب المطالعة يغرس في هذه الدور، وحب المطالعة عند أمة من الأمم مؤشر قوي وقويم في تقدم تلك الأمة وتطورها وازدهار حضارتها، واستمرارها في الإستزادة من المعرفة والإبداع.

- الحاح الوزارة في رفع مستوى نسبة النجاح في الشهادات العامة. فلنلق نطرة على الجدول الآتي للعام الدراسي ١٩٨٦/١٩٨٧.

أولاً : نتائج امتحانات الصف السادس الابتدائي (الرسمي) :

في مدينة دمشق	المتقدمون (ذكور)	اناث
	١٣٠٨٨	١٢٢٤٦
الناجحون	١٢٢٥٧	١١٨٩٣
نسبة النجاح	٩٣ر٧	٩٧ر١

ثانياً : الشهادة الاعدادية :

المتقدمون من الذكور والإناث على مستوى القطر ٢١٩٥١٩ الناجحون ١٢٣٢١٤ نسبة النجاح ٥٨ر٨

الشهادة الثانوية الفرع العلمي	المتقدمون	٨١٤٧٩
	الناجحون	٥٥٣٥٧
	نسبة النجاح	٦٧ر٩٤

الثانوية الفرع الأدبي

المتقدمون	٧١٦٤١
الناجحون	٣٧٧٠٩
نسبة النجاح	٥٢٫٦٣

نرى أن نسبة النجاح لا تتفق وما نلمسه من ضعف فاضح في معلومات طلابنا الناجحين. وهذا الخلل بين المعلومات والنجاح يؤدي إلى خلل في الحياة الاجتماعية والاقتصادية عند المواطنين..

- أن أهم أسباب التأخر الدراسي في العالم الثالث النامي، اكتظاظ الصفوف بالتلاميذ. هذا الأمر مهم جداً. وربما كان أهم سبب في التأخر الدراسي. لأن المعلم أو المدرس هو قبل كل شيء انسان. وللانسان طاقة بشرية محدودة. والمعلم يستطيع أن يعلم ويربي ثلاثين تلميذاً سوياً في مرحلة التعليم الابتدائي فإذا زاد عدد هؤلاء تعب المعلم وقل بطبيعة الحال انتاجه.. وكلما زاد عدد التلاميذ، في الفصل، زاد عدد المتأخرين. والعكس صحيح.

هذا عن التأخر الدراسي في المواد الدراسية، أما التأخر في مادة اللغة العربية فهو أدهى وأخطر. والشكوى من ضعف التلاميذ باللغة تتردد في الأقطار العربية كلها. وان فقدان التعاون بين مدرسي المواد ومدرس اللغة العربية يزيد في الطين بلة، ويجعل التأخر في اللغة ضغثا على إباله.

أمثلة على ذلك :

«قال لي مدير مدرسة ثانوية في مدينة دمشق :

«طلبت إلى الأساتذة، أن يضعوا أسئلة امتحان نصف السنة، للمواد كلها، فوجدت الأسئلة محشوة بالأخطاء الإملائية واللغوية والنحوية».

«قال لي أب تلميذ في صف الشهادة الاعدادية : ان معلم الصف أعرب لتلاميذه «ياعيد» فعل مضارع».

- نشرت جريدة تشرين الدمشقية في عددها ٤٠٩٧ الصادر يوم الثلاثاء في ٩ شباط ١٩٨٨ وفي صفحتها السابعة الثقافية مقالا لحسان عزة عن ضعف تدريس اللغة العربية على لسان الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر استاذ اللغة العربية في كلية اللغة العربية في جامعة دمشق. ويسرد الدكتور الأشتر نماذج من أغلاط الطلاب المتخرجين ما يقشعر له الحس والعقل والبدن.

هذا على مستوى القطر العربي السوري. أما على مستوى الأقطار العربية فالأخطاء اللغوية تنشر في أرقى المجلات وأوسعها انتشاراً.

هذه الدراسة تتناول التأخر التعليمي فقط أما التأخر التربوي فيحتاج إلى دراسة أطول وأدق. لأن التربية ترمي إلى تكوين الانسان من الداخل. والتكوين أخطر وأصعب من التعليم. فهو روح الأمة، وتهذيب الروح يتطلب جهدا أسمى وسعيا أرفع.

التعليم عمل مرهق ويزداد ارهاقه في فصل مكتظ بالتلاميذ. ولا سبيل إلى جعل هذا الارهاق مقبولاً بل محبباً، إلا بنقص عدد التلاميذ في الصفوف.. وخلال تجربتنا الطويلة وجدنا أن الصف في مرحلة التعليم الابتدائي يجب ألا يزيد عن ٣٠ تلميذاً.. وفي الاعدادي عن ٢٥. وفي الثانوي عن ٢٠ تلميذا[٢] .

وإذا نقصت الصفوف عن هذه الأرقام جاءت النتائج باهرة ومرضية جدا. ولعلاج هذه الظاهرة، ظاهرة ازدحام الفصول بالتلاميذ، المنتشرة في بلدان العالم الثالث. ينبغي تخصيص مبالغ باهظة لرصدها في ميزانيات التربية والتعليم. فيزاد عدد المعلمين وتبنى مدارس جديدة وتصنع وتنتج مقاعد كثيرة. فهل هذا الحل متيسر للإنسانية في الوقت الحاضر؟! لاسيما في البدان الفقيرة النامية؟!.

ومن المؤسف حقا أن نسمع بأن دول العالم تنفق كل عام أكثر من ٨٠٠ مليار دولار على التسلح، ولم تنفق على التعليم غير مبلغ زهيد بالنسبة لما تنفقه لخراب العالم ودماره..

نقول ان الحضارة البشرية مازالت بعيدة جداً عن الحضارة الإنسانية، حضارة نشر العلم والعدل وتأمين العمل والحرية والأمن للناس جميعاً.

وعلى العموم، ينبغي ألا ننسى أن التأخر الدراسي في العالم الثالث النامي مرتبط بالتخلف الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لهذا العالم. وإن معادلة ما نريد وما نستطيع لا تحل إلا بحل طرفي المعادلة معاً.

لا أحب، ولا أريد، من دراستي هذه، أن يشاع التشاؤم في الجو المدرسي. وليس التشاؤم من التربية والتعليم، وكلما تذكرت بيت شيخ المتشائمين: «لم يقدر الله تهذيبا لعالمنا – فلا ترومن للأقوام تهذيبا» كلما تذكرت هذا القول ابتسمت وزاد إيماني في التربية – والتفاؤل من روح التربية وجوهرها، ومن ألزم صفات المعلم المربي. وبدون التفاؤل لا تربية ولا تعليم.

فإذا كانت سلبيات التعليم التي ذكرت، نشرت في الجو، التشاؤم، فإن ايجابياته الكثيرة تنشر فينا أيضا التفاؤل، فاهتمام الحكومات بالنشاطات المتنوعة وبالتعليم المهني الصناعي منه والتجاري والفني، وايلاء المعاهد العلمية العملية عناية خاصة وواسعة، يزيدنا قناعة بأن مستقبل التعليم في منطقتنا بعد التحرر من سلبياته، يسير نحو الازدهار والتقدم.

وأخيراً، إن أهم نقطة، لمكافحة التأخر الدراسي ودفع مستوى التعليم كيفا ليوازي مستواه كما، متعلق في الدرجة الأولى، بعد توفر المال، بالمعلم المربي، كما سبق أن أشرت إليه في مطلع هذا البحث.. ولجلب الشباب الممتازين إلى هذه الرسالة الوطنية الإنسانية.

ولنعلم أنه مهما طورنا طرائقنا التعليمية وحسنا مناهجنا، منعكسة على صفحاتها المتألقة أشعة الحياة العصرية، فإن النجاح أو الفشل نابعان من المعلم، ولا شيء يستطيع أن يحل محله. لا السينما ولا الراديو ولا التليفزيون والفيديو ولا الكاسيت والكمبيوتر وما يملك من قدرات هائلة على الحفظ والتذكر. هذه كلها وسائل معينة جيدة وليست هي الأساس كالمعلم.

ان المعلم لا يشيخ. والفضل في ذلك له ولطلابه الفتيان وتلاميذه الأطفال. فهو يحيا ويعيش أبدا مع الفتوة النشيطة المرحة والطفولة اللعوبة الفرحة.

والخلاصـــة :

ان العملية التربوية، في أزمة، أزمة فقدان الثقة: فقدان الثقة بين التلميذ ومعلمه، بين التلميذ وأفراد أسرته، فقدان الثقة بين التلميذ ورفاقه، وأخيرا فقدان الثقة بين التلميذ ونفسه.

عملية التربية والتعليم تتعامل مع الانسان، والانسان جسد وروح، وأن الروح الإنسانية لا تنمو إلا بروح إنسانية.. وأن الفكر لا يقتبس جذوة الفكر إلا من قبس الفكر.

إن انساننا الذي نهدف إليه، هو اليوم طفل أو مراهق، ولكنه عما قريب سيصبح رجل المستقبل. وسيؤلف هو ورفاقه الأطفال الرجال وطنا بأكمله. وليس الوطن فقط (جغرافية وتاريخ) بل هو مجتمع مؤلف من هؤلاء الأطفال الرجال المجتمعين على لغة مشتركة ومتعاونين في سبيل مصالح مشتركة وذكريات وآمال مشتركة.

(وحبّب أوطان الرجال إليهم – مآرب قضّاها الشباب هنالكا)

فهل تستطيع الالات الصماء والأدوات الخرساء والوسائل الجامدة، أن تهذب النفوس وتسمو بالأرواح؟!

إن علاقة الآلة بالانسان تبقى أقل إنسانية من علاقة الانسان بالانسان، ولا أحد غير الانسان المربي القادر على تهذيب الإنسان الطفل وتعليمه، وإعادة الثقة إلى نفسه، وإقرار الانسجام في كيانه وإعداده إعداداً سليماً يستطيع أن يبحث ويكتشف المعلومات والمعرفة بتحرياته الشخصية المستمرة والمتعاونة، ليفهم المعرفة ويستوعبها ثم يبدعها.

والإبداع لعمري! غاية ما ترنو إليه التربية.

الهوامش :

١ – العالم الثالث : البلدان السائرة في طريق النمو الاقتصادي والتطور الصناعي. وهو بين العالم الرأسمالي ذي الاقتصاد الحر، والعالم الاشتراكي ذي الاقتصاد المقيد، والعالم العربي بأغلبيته، يقع في إطار العالم الثالث النامي.

٢ – زرت منذ مدة قريبة مدرسة تظن نفسها أنها نموذجية. فوجدت عدد تلاميذ الصف الأول الابتدائي قد بلغ ٦٥ تلميذا. يجلس على كل مقعد ثلاثة تلاميذ وأحيانا أربعة. فكيف يستطيع المعلم أن يقوم بواجبه التعليمي بل التربوي؟ وكيف يستطيع هؤلاء التلاميذ الصغار أن يتحركوا ويفهموا ويتعلموا وينموا. فغاية التعلم والعلم – كما تعلمون – نمو في الجسم والعقل والضمير! وزرت مدرسة ثانوية فوجدت عدد طلاب صف الشهادة الثانوية – القسم العلمي يتراوح بين ٥٠ – ٦٠ طالبا. فلا يعقل أن توضع تبعة التأخر الدراسي في مثل هذه الصفوف على التلاميذ أو على المدرسين. إنما التبعة تقع على كثافة الفصل. ،حل مشكلة الكثافة في أيدي المسئولين في وزارات التربية، إذا توفرت لديهم وسائل الحل وفي طليعتها المال، وبدونه لا حل ولا حلول.